كفن حمّود

قصة بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

١

حين بلغ اعضاء اللجنة الدار وجدن الباب مفتوحاً ، ووجدن عمتي نجمة قائمة تنتظرهن وفي يدها الطابة .

عمتي نجمة فاتت السبعين من عمرها ، تميل في كل خطوة تخطوها الى الجانب المخالف للساق التي تدفعها الى الامام ، وعيناها مغرورقتان دوماً بالدمع . في هذه المرة كانت اكثر امتلاء بالدمع من كل مرة ، حتى لقد سالت منه قطرات على خديها . ليس معنى ذلك ان عمتي نجمة كانت تبكي ، فلعل ذلك مصدره برد الصباح او جهد الوقوف ، فعمتي نجمة قليلة التأثر بما يؤسي الناس ، جلدة صبورة . قالت وهي تمد يدها بالطابة الملفوفة بورق ازرق الى عضو من اعضاء اللجنة :

ـ هذه الطابة اتيت بها من الحجاز ، من جانب بيت الله ، احاسبكن يوم الله ان لم تصل اليهم سالمة ..

٢

قد تسألون اية طابة كانت تحمل عمتي نجمة في بلدنا يسمّون الكرة التي يلهو بها الاولاد طابة . ويطلقون اسم الطابة على صفائح المرمر المستطيلة الصقيلة التي يغطون بها حفرة القبر قبل ردمه بالتراب ، ومن هذا ما سمعت عنه خادم بيتنا يقول لعجوز من جاراتنا ارهقته بالسخرة : متى يسعدني الله يا خالتي فأصف الطابات على قبرك المبارك ! ثم اننا ، في بلدنا ، نسمي قطعة القماش غير المخيطة والتي يدعوها التجار ثوباً ، نسميها طابة .

بالطبع لم تكن عمتي نجمة تحمل في يدها كرة لعب لتقدمها للجنة ، فقد تجاوزت السن التي تبيح لها ذلك منذ زمن بعيد . ولم تكن تحمل صخرة من صخور القبور ، فقد كانت اعجز من ان تفعل ذاك ، ولو قدرت عليه ، فما الذي تفيده اللجنة من مثل هذه الصخرة ؟ انما كانت عمتي نجمة تحمل طابة قماش ، ثوباً كاملاً من الحرير الابيض الشعري ، الحرير الصيني ذي الغزالين ، افخر صنف من نوعه .

قالت عمتي نجمة لاعضاء اللجنة : حفظت هذه الطابة لحمود . احاسبكن يوم الله اذا لم تصل اليهم !

٣

اللجنة التي كانت عمتي نجمة تخاطب اعضاءها هي لجنة السيدات لاسبوع التسلح . اما حمود فقد كان ، رحمه الله ، ابنها .

حجّت عمتي نجمة في العام الفائت ، لم تنقض بعد اربعة شهور على عودتها من ارض الحجاز . اما حمود فقد تقضت سبعة اعوام وثمانية اشهر على فراقه هذه الدنيا . فكيف تقول عمتي نجمة انها حفظت هذه الطابة التي جاءت بها من الحجاز لحمود ؟ هل خرفت عمتي نجمة ، ام هل حيّ حمود بعد موته ؟

عمتي نجمة لم تخرف . وحمود ، حمود ذو الوجه المجدور والعضل المفتول والحد المصعر لم يحي من موتة ماتها . واذا كانت عمتي نجمة قد قالت لسيدات لجنة التسلح انها حفظت الثوب الحريري الناصع البياض لحمود فهي قد عنت عظام حمود ، ولا حمود الحي بل حمود الذي فارق الحياة منذ سبعة اعوام وثمانية اشهر ..

٤

منذ سبعة اعوام وثمانية اشهر ، منذ جاء خبر حمود ، غدت عظام حمود الشغل الشاغل لعمتي نجمة .

كلما لقيت عمتي نجمة واحداً من أصحاب حمود سألته ماذا حل بعظام حمود . وكلما شكت ألم عضو من جسدها تأوهت وقالت ، اتراني اموت قبل ان الملم عظام حمود ؟ . وكلما دار حديث عن النكبة والارض المغصوبة ، تساءلت اترى فتح الطريق لازور عظام حمود ؟!

لم تعرف عمتي نجمة الارض التي صرع فيها حمود ، ولم تر مصرعه ، ولكنها كانت ترى دوماً تلك الارض بعين تصوراتها وترى جسده ملقى على اديمها . كان اشد ما يؤسيها ان حموداً ظل على ذلك الاديم مطروحاً لا يحويه قبر ولا يلف جثمانه كفن ، حتى بلي وتبعثرت عظامه . فآه لو ان يدها ، يدها المرتعشة ، استطاعت ان تلم تلك العظام بعضها على بعض ، ولا شيء غير ذلك ..

٥

تلك الارض التي تناثرت عليها عظام حمود ، اين تقع ؟

لا تسألوا عمتي نجمة ، فانها لا تدري . ولا تسألوها عن مصرع حمود كيف حدث ، فانها كذلك لا تدري .

كل الذي تدريه عمتي نجمة ان حمود قد ذهب في ذات يوم متطوعاً ، كما ذهب ابناء عمه وابناء قومه متطوعين ، الى فلسطين . ثم عادوا ولم يعد حمود . فلما سألت عنه قيل لها انه لم يعد لانه استشهد . قالوا لها انه سقط في معركة

الشجرة شهيداً. فبكت عمتي نجمة اياما قليلة .. ثم سكتت.

لم تبك عمتي نجمة طويلاً . لقد ذهب حمود مع ابنـاء عمه ، فهل يعقل ان يعودوا جميعاً سالمين ؟ لو كان القتيل ابراهيم او عبد الباقي او خليل او محمد لما كان حزنها على اي منهم دون حزنها على حمود . فلتطو جوانحها على اساها ، فلن يرجع الدمع حمود .

٦

ولكن حمود ، كما قيل لها ، حين قُتل ظل ملقى في العراء لان رفاقه طُردوا بعد ان صُرع ، من الارض التي كانوا يحلونها.

تلك الصورة لحمود، بوجهه المجدور متطلعاً الى السماء، وجسده الطريح ملقى على ظهره، وذراعيه الممددتين الى جانبي جسده كأنهما تحتضنان الفضاء، هي كل ما بقي من وصف رفاقه الذين شهدوا مصرعه، وهي كل ما استقر في تصور عمتي نجمة عن مصرعه في تلك الارض العجيبة ... ارض فلسطين.

حمود، ابنها حمود، ملقى في العراء. مات ولم يدفن، لا ولم يكفن . وعظامه التي غسلها المطر وجففها الريح ظلت هناك في الارض القفر بلا قبر ولا كفن !

صدر اليوم

القسم الثاني

من الموسوعة الاقتصادية الكبرى

رأس المال

كارل ماركس

الاساس الفكري للاشتراكية ونظرية الطبقات

الترجمة الحرفية الكاملة

لاول مرة في اللغة العربية

تصدر في عشرة اقسام متتالية

الثمن ٣٠٠ ق . للجزء

منشورات مكتبة المعارف في بيروت

شارع المعرض – ص ب ١٧٦١

٧

كلما دار حديث النكبة وسمعت عمتي نجمة لفظة فلسطين، سألت في لهفة: أترى فتحت الطريق لألم عظام ذلك الصبي ؟

قضية فلسطين كلها بالنسبة الى عمتي نجمة هي قضية طريق مسدودة لا بد ، لا بـــد من ان تفتح . ان لم تفتح اليوم فستفتح غداً .

فشل القادة ، ويئس الساسة ، وتآمر الزعماء، وثبطت همم المتحمسين ، ونفض كثير من النـــاس ايديهم من الارض المسلوبة . ولكن عمتي نجمة لم تفقد ايماناً ولا اضاعت ثقة. فهي ترتقب اليوم الذي تزور فيه مصرع ابنها ارتقاب المؤمن وعد ربه في هدوء واطمئنان .

وعلى ايمانها ذلك وعلى ثقتها تلك اشترت عمتي نجمة حين حجت في الموسم الفائت طابة الحرير الشعري هذه ، من ارض الحجاز ، من تاجر في جوار بيت الله.

٨

لمَ اشترت عمتي نجمة هذا الثوب الحريري الناصع البياض من ذلك التاجر في جوار بيت الله ؟ أتلبسه، وهي التي اتخذت الشعار سواداً حتى قبل ان يفارقها حمود ؟ ام لتهديه وهي التي عصرت في نفقات الحج كل ما حوته يدها الفقيرة من مال؟

لا هذا ولا ذاك. ولكن عمتي نجمة اشترت الثوب الابيض الطاهر من تلك الديار المقدسة وفي نيتها شيء واحد ، هو ان تجعله كفناً تلف به عظام حمود حين تجمعها من اديم تلك الارض التي شربت دمه في معركة الشجرة ، ارض فلسطين .

٩

حين فشل القادة ويئس الساسة وتآمر الزعماء وثبطت همم المتحمسين، لم تفقد عمتي نجمة الايمان ولا اضاعت الثقة في ان طريق فلسطين ستفتح . ولكن شيئاً في نفسها ، في جسدها ، في اضطراب ركبتيها اذا قامت، وفي تهاوي جسدها اذا قعدت، وفي ارتجاف يديها اذا مدتهما لحاجة ، شيئاً في كل هذا يدعوها الى ان تتساءل : هل ستكون هي ، عمتي نجمة حين تفتح تلك الطريق ؟ هل سيمتد بها العمر الى ذلك اليوم ؟

ماذا يكون اذا فارقت عمتي نجمة هذه الدنيا قبل ان تفتح تلك الطريق ؟ ما الذي يحدث لعظام حمود المنثورة في العراء ولطابة الحرير المودعة في الدولاب العتيق ؟

١٠

في تلك الاثناء تحدث الناس، واكثروا عن اسبوع التسلح.

قالوا لعمتي نجمة انهم سيجمعون في ذلك الاسبوع مالاً، وسيشترون بذلك المال سلاحاً. فسألتهم عمتي نجمة: ماالذي ستفعلونه بهذا السلاح؟

قال بعضهم: نحمي به انفسنا.

وقال آخرون: بل نستعيد به فلسطين.

فهتفت عمتي نجمة: هل تستعيدون موقع الشجرة، حيث عظام ذلك الصبي مبعثرة؟

فضحك السامعون وقالوا: بعون الله يا عجوز!

فسكتت عمتي نجمة. سكتت لتفكر بثوب الحرير الناصع البياض وبعظام ابنها حمود ملفوفة فيها...

١١

حين فضّت واحدة من سيدات لجنة التسلح الورق الازرق عن طابة الحرير الصيني لتريها لرفيقاتها سقطت من الطابة ورقة كبيرة، ورقة مسطرة، منتزعة من دفتر من الدفاتر التي يكتب فيها التلاميذ وظائفهم المدرسية. في تلك الورقة كانت جملة مكتوبة بخط تلميذ، واحد من احفاد عمتي نجمة ولاشك، هي:

«من والدة الشهيد حمود الابراهيم العجيلي، الى لجنة التسلح» وتحت هذه الجملة كانت كلمتان مكتوبتين بحروف اكبر: «ثوب لحمود».

١٢

منذ ان سلمت طابة الحرير الشعري، الحرير الصيني ذي الغزالين، افخر صنف من نوعه، الى سيدات لجنة التسلح، نامت عمتي نجمة ملء جفونها.

نامت ولم تعد تستفيق في انصاف الليالي لتمسح اجفانها الورهاء من حلم رأت فيه تلك العظام منثورة على الارض العراء. ولم تعد عينها كذلك، اذا استفاقت، تقذى بمرأى طابة حرير منبوذة في الدولاب العتيق، تنتظر ان تحمل الى تلك الارض البعيدة القريبة، لتلف العظام المبعثرة، عظام حمود. الم تسلم عمتي نجمة تلك الطابة يداً بيد الى سيدات اللجنة؟ الم تنذرهن بانها ستحاسبهن يوم الله اذا لم تصل تلك الطابة «اليهم» سالمة؟

١٣

«اليهم»؟! من هم؟ واين هم؟

لو سألتم عمتي نجمة «عنهم» للجلجت كثيراً، ولأعوزها الجواب الواضح. من هم؟ انها لا تعرفهم على وجه اليقين، ولكنها تدرك بقلبها من هم. اما قيل لها ان ما يجمع من السلاح فهو «لهم»، و«انهم» هم الذين سيفتحون تلك الطريق ويستعيدون تلك الارض ويأخذون ذلك الثأر؟

من هم؟ انها لتعرفهم. هم الذين سيبلغون موقع الشجرة ويلملمون عظام حمود. ولهذا ارسلت اليهم عن طريق سيدات لجنة التسلح ثوب حمود.

ارسلت اليهم كفن حمود، فقرت عينها، فنامت.

١٤

نامت عمتي نجمة وقد تركت امانة يجب ان تؤدى. ذلك الثوب. كفن حمود هو وديعة يجب ان تحمل الى صاحبها لذلك لا تعجبوا اذا علمتم ان اعيناً كثيرة لم تنم بعد ان نامت عين عمتي نجمة.

تاريخ

إسبانيا الاسلامية

او

كتاب اعمال الاعلام

في من بويع قبل الاحتلام

من ملوك الاسلام

لسان الدين ابن الخطيب

تحقيق وتعليق

المستشرق الفرنسي

إ. ليفي بروفنسال

•

صدر عن دار المكشوف

ص. ب ٥٨١، بيروت

انه همّ عظيم ان يحمل ذلك الكفن الى صاحبه . ذلـــك يعني ان طريقاً يجب ان تفتح وارضاً يجب ان تسترد وثأراً يجب ان يبلغ ، قبل ان تلف بالطابة الحريرية تلك العظام التي غسلها المطر وجففتها الرياح وصقلتها الرمال .

فمنذا يحمل كفن حمود اليه ؟

١٥

ترى من هم ، اولئك الذين سيحملون كفن حمود اليه ؟

ايكونون ابراهيم وعبد الباقي وخليل وعبدالسلام ومحمد؟ انهم جيل عاد من المعركة تاركاً عظام حمود في العراء . في نفوسهم ذلة وعلى جباههم ميسم عار . كلما لقيت عمتي نجمة واحداً منهم سألته : اين خلفت عظام حمود ؟ وكأنها تقول له: انت الذي بعثرت تلك العظام على ذلك الاديم !

ام هم احمد وعبد الوهاب وعامر وعبد العظيم وحميد ؟ جيل يلي الاول ، ذاق الفشل ولم يفهم دواعيه ، فتخبط في الحماسة وما زال يجهل الدرب ؟

ام هم عبد الاله وسوسن وشوقي ومارية ؟ حين يحمل الفتيان والفتيات اقساطاً متماثلة من هم الامة وحق الحياة ؟

ام كل هذه الاجيال ، ام جيل غير كل هذه الاجيال ؟!

١٦

من ذا الذي سيحمل كفن حمود ؟

جيل آثم يريد ان يشتري خطيئته ويكفر عن عاره . وجيل يريد ان يلقي نفسه في النار ولا يدري انها تحترق . وجيل يتهيأ ليكون كفوءاً للهمّ الذي أعد له . واجيال لا تزال في باطن الغيب ..

من ذا الذي يحمل منهم كفن حمود اليه ؟ تساؤل ذاد المنام عن الاعين بعد ان هجعت عين عمتي نجمة .

ان عمتي نجمة لم تدر اية نار اضرمت حين القت طابة الحرير بين ايدي اعضاء اللجنة حين مررن بدارها ذلـــك الصباح .

١٧

لتنم عمتي نجمة هادئة البال . ان تلك الطابة ، ذلك الثوب ، كفن حمود ، لا بد ان يحمل الى حمود .

الرملة – سوريا — عبد السلام العجيلي

جدار العدالة

«فلتهجم اسرائيل في الربيع ، ولتهجم اسرائيل في الصيف ، ولتهجم اسرائيل في الخريف ، ولتهجم اسرائيل في الشتاء . ان كانت تحب الشتاء !»

جمال عبد الناصر

●

الموت عبر خطوطنا .. فليزحفوا
وليهجموا .. وليعتدوا .. وليعرفوا
ان الدماء ، دماءنا ، خلف الحدود
تغلي .. وتصنع من جديد
تاريخ شعب يهتف
فليزحفوا
وليعرفوا
انا سنرجع بالارادة بالحديد
ارض الجدود .

***

وليصرخوا .. وليكذبوا .. وليهرفوا
وليعتدوا .. وليقتلوا .. وليختفوا
وليأثموا
وليعلموا
انا الجدار المستعد الصامد
انا الصراع المستنير الخالد
ايماننا الخط المنيع الراصد
ارواحنا الفجر القريب الصاعد
فليفقدوا اعصابهم .. فليفقدوا
وليطلقوا نيرانهم .. وليعتدوا
فالموعد
في صدرنا لهب يثور ويزيد
في ارضنا ظمأ يئن ويحقد
ولنا الغد
والجولة الاخرى وركب الصامدين
ودبيب اقدام المشاة الظافرين
وهتاف آلاف الضحايا .. النازحين
.. القدس ، حيفا ، دربنا .. فليعرفوا
الموت عبر خطوطنا .. فليزحفوا

سمير صنبر